# الفصل الثاني

## مدلول التاريخ لدى المؤرخين المسلمين

أورد السخاوى فى كتابه : " الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ " [١] أن كلمة " التاريخ " – طبقا لبعض الآراء – مشتقة من " الأرخ " بفتح الهمزة وتعنى البقرة الوحشية ويفسر أحد الباحثين [٢] ذلك باحتمال الارتباط بين الوليد ولفظ التاريخ وأن الوليد قد تمت ولادته ودخل الزمن وابتدأت حياته ، فالتاريخ يهتم بالنشأة والميلاد والتطور عبر الزمن ، ومع ذلك فهناك من ينكرالصلة بين وليد بقر الوحش ولفظ التاريخ لأن الشقة بعيدة وصعبة فى الربط بينهما وهو ما أوضحه السخاوى نفسه .

كما ترجع كلمة " تاريخ " لدى العرب الى أصولها فى مجموعة اللغات السامية ، ففى الأكدية "أرخو" فى حين أنها فى لغات العربية الجنوبية تكون تحت أشكال " ورخ " وكلها تعنى الشهر ، ومع اختلافات طفيفة فى ترتيب الحروف فان كلمة تاريخ العربية قد وجدت فى سائر اللغات السامية حيث تبين تسجيلها على النصوص الأثرية، وقد عثر فى النصوص العربية الجنوبية على " أرخ " وهى تعنى ( حكم ) أو ما يشبه ذلك على حد رأى أحد الباحثين [٣] فقد استخدمت مرة مقرونة بكلمة ( سنة ) ، وهذا ما دفع المؤرخين الى تفسيرها بمعنى ( حقبة ) ، وفسرها آخرون بأنها ( عادة ، أو سنة ) ثم تطور معناها فيما بعد الى ( طريق معين للعمل ) وأحيانا ( تقرير ) أو ( وثيقة ) ، وهذه الكلمة – وثيقة – وهى التى انتقلت الى اللغة العربية لينبثق منها معنى التاريخ ، فى حين يرى أحد الباحثين الغربيين ان هذه الكلمات برمتها مشتقة من الأصل ( أ، ر ، خ) أو ( أرخ ) من اللغات العربية الجنوبية . [٤]

ويرى أحد الباحثين العرب أن كلمة " تاريخ " تعنى اللغة العربية الجنوبية ( القمر)، أو ( الشهر ) ، وذلك نظرا لاستخدام التوقيت الشهرى عن طريق مشاهدة القمر ...

بمعنى أنها تعنى الشهر القمرى خاصة ، حتى أن الاله القمر فى جنوب الجزيرة العربية أطلق عليه ( ورخ ) [٥] . وهذا الرأى العربى مستمد أصلا من المستشرق الأستاذ " فرانز روزنتال " فى كتابه A History of Muslim Historiography .

والذى يرجح أن أصول كلمة History فى العربية مستمدة من الكلمة السامية التى تعنى القمر أو الشهر ، وهى فى الأكدية ( أرخو ) وفى العبرية ( يرخ ) ، غير أن روزنتال يرجح - أيضا - عدم استعمال هذه الكلمة فى العربية فضلا عن عدم احتمال افتراض أنها أستعيرت مباشرة من العبرية أو الآدامية ، وأغلب الاحتمالات لدى روزنتال أن أصلها - كما سبقت الاشارة - من العربية الجنوبية ويفترض تبعا لذلك أن شكلها الأصلى من العربية هو " توريخ " وأن تاريخ هو التكوين القديم من " مؤرخ " [٦]

ويؤكد السخاوى أن التقويم الهجرى ( التاريخ ) أخذ فى الأصل من اليمن قائلا : « ... وقيل أول من أرخ التاريخ يعلى من أمية حيث كان باليمن ، وذلك أنه كتب الى عمر كتابا من اليمن مؤرخا فاستحسنه عمر ، فشرع فى التاريخ ، أخرجه أحمد ابن حنبل بسند صحيح لكن فيه انقطاع بين عمرو بن دينار ويعلى ... ويروى ابن أبى خيثمة عن طريق محمد بن سيرين قال : " قدم رجل من اليمن فقال رأيت باليمن شيئا يسمونه التاريخ يكتبونه من عام كذا وشهر كذا فقال عمر هذا حسن فأرخوا "[٧]

أما جلال الدين السيوطى فى كتابه الطريف " الشماريخ فى علم التاريخ :" فيرى أن التاريخ هو ربط الأحداث بالزمن ، أوبتعبير آخر هو وضع علامات على مسيرة الزمن لتحديد وقت وقوع الأحداث ، تماما كما توضع العلامات لتحديد مكان القرى والمدن ، فالعلامات على الطريق تحدد المكان والعلامات فى مسيرة الزمن لتحديد وقت أو زمن أو حين أو متى تقع الأحداث والوقائع .

ويذكر السيوطى أن الناس فى بداية الأمر أرخوا للاحداث الهامة ، وأن هناك أمثلة على ذلك لا ينكرها العقل بالمرة ، فمن الطبيعى أن يؤرخ آدم من يوم هبوطه من

الجنة ، فيقول أن ذلك حدث بعد هبوطى بعشرة أيام أو عشرين ، أو طلعت الشمس بعد هبوطى عشر مرات أو عشرين .. وهكذا ، وبهذا الخصوص يرى أحد الباحثين [٨] أنه بالرغم من، عدم وجود وثائق أو أدلة على ذلك ، فأن الزعم السابق يدخل فى حيز الاستنتاج المعقول الذى لا يتنافى مع الطبيعة البشرية ، ومثل هذا الاستنتاج لا ينكره التفكير التاريخى أو المنهج التاريخى بل هو ضرورى فى أحوال كثيرة .

أن التاريخ بمعنى تسجيل الأحداث المرتبطة بالزمان والمكان يهدف فيما يرى السيوطى الى معرفة الأجيال وحلولها وانقضاء الأجل ووفيات الشيوخ ومواليدهم والراوة عنهم فيعرف بذلك كذب الكاذبين وصدق الصادقين ، غير أن علم التاريخ عند مؤرخى المسلمين – بصفة عامة – كان " معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ووفياتهم ، الى غير ذلك ، وان الغرض منه هو الوقوف على الأحوال الماضية ، فالماضى فى نظر المؤرخ – طبقا لآراء أحد الباحثين الغربيين – " لا يتكون من سلسلة للأحداث ، وانما هو نظرية للمعرفة تلقى ضوءا على حقيقة هذه الأحداث "، وان علم التاريخ هو نوع من أنواع البحث العلمى يهدف الكشف عن جهود الأنسان فى الماضى معتمدين فى ذلك على تفسير الوثائق ، والحقيقة التى ينبغى ذكرها بالنسبة لعلم التاريخ عند المسلمين فى العصور الوسطى قد ارتبط بحديث الرسول الكريم – عليه الصلاة والسلام – مما جعلهم يحرصون على تحقيق الراوية وتمحيصها .

وعموما فان المؤرخين المسلمين فى العصور الوسطى قد تعرضوا لمعنى كلمة " التاريخ " وتطورها فى تفصيل قليل فيذكر الصولى أن " تاريخ الشئ " غايته ووقته ، الذى ينتهى اليه زمنه ، وفى مناسبة أخرى ضرب الصولى [٩] مثالا آخر قائلا :

" فلان تاريخ قومه فاما أن ينتهى اليه شرف قومه بما يقدمه من الأمور الجليلة من كرم أو فخر ، أو نحوهما ، لكونه ذاكرا للأخبار وماشاكلها .

فى حين يذكر الجوهرى أن التاريخ تعريف الوقت والتاريخ مثله : يقال أرخت " ورخت " واشتقاقه من الأرخ ، وهى صغار الأنثى من بقر الوحش ، لأنه شئ حدث كما يحدث الولد [١٠] .

وفى كتابه " المعرب من الكلام الأعجمى " يقول الجواليقى : [١١] " يقال أن التاريخ الذى يؤرخه الناس ليس بعربى محض وانما أخذه المسلمون من أهل الكتاب ، وتاريخ المسلمين أرخ من سنة الهجرة كتب فى خلافة عمر – رضى الله عنه – فصار تاريخا الى اليوم " "[١٢].

ويقول أبو الفرج قدامه بن جعفر فى كتاب : " الخراج " : " تاريخ كل شئ آخره ، فيوء رخون بالوقت الذى فيه حوادث مشهورة وعلى نحو مماثل يقول محمد بن يحيى الصولى " تاريخ كل شئ غايته ووقته الذى ينتهى اليه زمنه ، ومنه قيل لفلان تاريخ قومه ، اما لكون اليه المنتهى فى شرف قومه ، وذلك بالنظر لاضافة الأمور الجليلة من كرم أو فخر أو نحوهما اليه ، واما لكونه ذاكرا للأخبار وما شاكلها..".

ويقول الشمس محمد بن أحمد الباعونى الدمشقى فى تحفة الظرفاء فى تاريخ الملوك والخلفاء : " ان التاريخ علم سامية شرفه ، عالية بين الأنام غرفه ، وفيه ما فيه من المنافع حتى لقد قال الامام الشافعى فى خبر قد صح عنه نقله من حفظ التاريخ زاد عقله . وقيل :

وبعد فالتاريخ والأخبار . . علم له فى الملة اعتبار

وقد كفى فيه من البرهان . . ما جاء نا من قصص القرآن .

ووصف البرازلى التاريخ قائلاً : " هو من أحسن العلوم وأشهاها وأجل الفوائد وابهاها وأكمل المحاضرات وأزهاها لأنه سبيل الى الاعتبار ومناهج يعين على الإستبصار وتحفه تريك من مضى من الأمم هيانا ، ونزهة تشرح للمطالع فيه قلبا

وتبسط له لسانا " .

وقال الكمال الأدفوى : " التاريخ فن يحتاج اليه وتشد يد الضانة عليه " فى حين اعتبره المدقق أبو الحسن الخرجى صاحب تاريخ اليمن فناً أهمله الناس مع شدة احتياجهم اليه ، وتعويلهم فى كثير من الأمور عليه ، ويصف ابن حزم التاريخ بأنه علم الأخبار ، بينما يرى ابن جماعة أنه لابد من التفرقة بين علم التاريخ وعلم الطبقات .

ويقول صاحب التبرالمسبوك : " ان علم التاريخ فن من فنون الحديث النبوى ، وزين تعز به العيون ، حيث سلك فيه المنهج القويم المستوى ، بل ان وقعه من الدين عظيم ، ونفعه يتبين فى الشرع لشهرته عن مزيد البيان والتفهم ، اذ به يعلم أهل الجلالة والرسوخ ما يفهم به الناسخ من المنسوخ .

أما العماد الكاتب الأصفهانى فيقول : " ان التواريخ معتادها اما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى ، واما مستفتحة بمعقب من الدول الأخرى ، فلا أمة من الأمم ذوات الملل ، وذوات الدول الا ولهم تاريخ يرجعون اليه ويعولون عليه ، ينقله خلفها من سلفها ، وحاضرها عن غابرها ، تفيد شوارد الأيام وتنصب به معالم الاعلام ، ويستطرد العماد الكاتب الأصفهانى قائلا من فضل التاريخ : " لولا ذلك لانقطعت الوصل ، وجهلت الدول ، ومات فى أيام الآخر ذكر الأول ، ولولا التاريخ لضاعت مساعى أهل السياسات الفاضلة ، ولم تكن المدائح بينهم ، وبين المذام هى الفاصلة ، والاعتبار بمسألة العواقب وعقوبتها ، ويوضح العماد الأصبهانى المراحل التى مر بها تاريخ الأنسان قائلا : " أرخ بنو آدم بيومه ، ثم أرخ الأولون بالطوفان الذى بلل الأرض وأغرقها ثم بالعام الذى بلبل الألسنة وفرقها ، وأرخت الفرس أربعة تواريخ ، أربع طبقات من ملوكها ، أولها كلشاه ، ومعنى هذا الاسم ملك الطين ، حيث ترجع الفرس بأنسابها اليه .

أما الأغريق (١٣) فقد أرخوا من فيلبس الى الآسكندر الى كليو باترا السابقة

( ٣٥٩ ق. م – ٣٢٣ ق – م ) ، فى حين أرخ الروم بالاسكندر لعظم نفوذه وشهرته ، وأرخ القبط بالعراق ، والقبط بمصر بتواريخ موجودة فى الكتب التى خلدوها ، وبالأزياج التى رصدوها ، وأرخ اليهود بأنبيائهم وخلفائهم وبعمارة بيت المقدس .

وكانت العرب قبل ظهور الاسلم تؤرخ بتواريخ كثيرة ، فكانت حمير تؤرخ بالتابعة، وأرخت غسان بعام السد، – أى تهدم سد مأرب – وأرخت العرب اليمانية بظهور الحبشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه ، وأرخت معد بغلبة جرهم للعماليق واخراجهم من الحرم ، ثم أرخوا بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع فى التيار تنقلوا منها وافترقوا عنها ، كما أرخوا بحرب البسوس وعام الذنائب ،– واقعة حربية من وقائع حرب البسوس – وعام الخناق – وباء يصيب الطيور والابل – وعام الفيل ، ثم كان الاسلام فنسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم .

ويقول ابن الأثير صاحب كتاب الكامل فى التاريخ : " رأيت جماعة ممن يدعى المعرفة والدراية ، ويظن بنفسه التبحر فى العالم والرواية ، يحتقر التواريخ ويزدريها ، ويعرض عنها ، ويلغيها ، ظنا منه أن غاية فائدتها انما هو القصص والاخبار ونهاية معرفتها الأحاديث والأسحار ، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره .

## العـــرب وكتـــابة التـــاريخ :

( بالمقارنة مع الحضارات القديمة ) : عمل العرب على استنكار تاريخهم ، وتدوينه بما لديهم من أدوات مثل النقش على الحجر أو التسجيل على الجلد ، وغيره وذكر الجاحظ [١٩] أن العرب كانوا يجعلون الكتاب حفراً فى الصخور ونقشا على الحجارة اذا كان تاريخا لأمر جسيم ، أو عهدا لأمر عظيم ، أو موعظة يرتجى نفعها ، أو احياء شرف يريدون تخليد ذكره ، أو تطويل مدته ، كما كتبوا على قبة غمدان ، وعلى عمود مأرب ، وعلى ركن المشقة ، وعلى الأبلق الفرد ، .... يعمدون الى الأماكن المشهورة والمواضع المذكورة ، فيضعون الخط فى أبعد المواضع من الدثور ، وأمنعها من الدروس

، وأجدر أن يراها من مر بها ، ولا تنسى على وجه الدهر .... " .

والسؤال الذى يثور دائما فيما يتعلق بتدوين التاريخ العربى هو الى مدى اعتمد المفكرون المسلمون على التاريخ القديم أو لدى الاغريق أو الفرس ؟ والواقع أن التاريخ العربى نشأ مستقلا متسقا مع ظروفه البيئية التى مر بها ، ومع ذلك فأن التاريخ العربى ظل مجهولا حتى جاء الأسلام ، وترجع سبب معرفة عرب ما قبل الأسلام به الى تباين واختلاف الذين سجلوا هذا التاريخ وهو ما يستدعى وقفة لتفسير الأوضاع البيئية وتأثيرها على الكفاية التاريخية قبل الاسلام ، ثم تناول النقطة ذاتها بعد الأسلام باعتبار أن أول من لفت أنظار العرب لدراسة تاريخهم وأخذ العبرة والدروس المستفادة من الأمم السابقة هو القرآن الكريم – كتاب الله – عز وجل – وأساس التشريع الأسلامى ، وهو أصدق المصادر العربية المدونة على الأطلاق ، لأنه تنزيل من الله – تعالى – ، ففيه ذكر لمظاهر حياة العرب السياسية والآقتصادية والآجتماعية والدينية ، وبصفة خاصة لبعض الشعوب قبل الأسلام بفترة طويلة مثل عاد وثمود ، وأخبار الأحداث في اليمن ، وسيل العرم – الذى دمر سد مأرب – وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل .(١٤)

ومن الثابت أن أخبار العرب موغلة فى القدم ، فضلا عن أن أى كاتب من بغداد أو دمشق فى العصر الأسلامى لا يمكنه أن يحيط بها بل انها – أى أخبار العرب – قديمة للغاية ، ومن نافلة القول أن المفكرين المسلمين قد أدركوا ذلك جيدا لأنهم أول من أشار بأهمية دراسة الآثار لمعرفة التاريخ وحل مشاكله التى تواجه المؤرخين . وأخبار أيام العرب هى شكل " سامى " قديم ، ويذكر روزينتال ان نفس الشكل يظهر فى أقدم الأقسام التاريخية للتوارة حيث الارتباط الضعيف فى الأحداث التاريخية وتسلسلها وقصص الأيام فى عصور ما قبل الأسلام لم يكن الهدف منها أن تكون مادة تاريخية نظرا لاعتماد الموء رخين المسلمين الأوائل بصفة رئيسية على الإشارات المقتضية للأيام

وقصص الأيام ترجع فى أصولها الى الأدب أكثر مما ترجع الى التاريخ حيث كانت تروى للايناس والمتعة العا طفية نظرا لا حتوائها على عناصر تاريخية لأحداث كبيرة متصلة بمعنويات معينة ، أما الانتقاد الموجه لها فهو عدم دراستها ضمن الأسباب والنتائج التاريخية وعدم أخذها بعنصر الزمان ، وما يستتبعه ذلك من القول أن الشعور التاريخى لم يتطور قبل الاسلام الى الحد الذى يضفى على هذه القصص عنصر التعاقب التاريخى (١٥) .

**(أ) تـــأثـير البيـــــئة :**

وفيما يتعلق بالبيئة وتأثيرها على الوعى التاريخى فى جزيرة العرب قبل الأسلام ، فهناك بالآضافة الى قصص أيام العرب البطولية - والتى لم تتطور لتصبح أدبا تاريخيا بالرغم من أن فنونها وأشكالها أدت دورا كبيرا فى علم التاريخ الأسلامى ، هناك الشق الثانى والجوهرى وهو الأنساب لدى العرب فى عصور ما قبل الاسلام ، حيث قلت أهمية الأنساب كشكل من أشكال التعبير التاريخى ، ومن الصعب الافتراض (١٦) بأن هدف شجرات الأنساب قبل الاسلام هو الأحتفاظ بالأحداث التاريخية التى تتعلق بأفراد شجرة النسب ، كما أنه من الصعب الافتراض بأن المعلومات المتعلقة بالأنساب قد تم تدوينها فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، فضلا عن إستبعاد تطور "علم " النسب الى شكل أدبى ، ويؤكد هذا الدور الضئيل فى تشكيل الصور الأدبية لعلم التاريخ الأسلامى ، كذلك فأن الأهتمام بالتراث النسبى ربما كان قد تطور فى ظروف ملائمة الى اهتمام فى الماضى وايجاد وتقوية الشعور التاريخى كتمهيد جوهرى للتأليف التاريخى ، ومع ذلك فأن التراث النسبى عند العرب قد ساعد فيما بعد على تكوين التكتلات السياسية فيما بعد وهو ما مهد لفكرة التاريخ العالمى فى الفكر الأسلامى .

وبالإضافة الى قصص الأيام وتراث الأنساب الذين كان يهدمهما أواسط الجزيرة العربية قبل الأسلام ، ينبغى أن نأخذ بعين الاعتبار أن العرب قد إستعملوا وسائل

عديدة فى تأريخهم للأحداث ، فكانوا يؤرخون بحكم الملوك وأصحاب الجاه والنفوذ وهو ما نهجه العرب الجنوبيون ، مثال ذلك أن العرب سجلوا حادثا محددا " بيوم البقع بئر ملك معنم " أى أيام حكم البقع بشر نلك معين .(١٦)

وكانت سنة سقوط حكومة سبأ وتكوين حكومة سبأ وذى ريدان فى ١٠٩ ق . م . هى التقويم الثابت الذى أرخ به قبيل الاسلام ، وساعد هذا التقويم على تثبيت تواريخ هذه الحقبة التى أرخت بها ، ويعتبر الموء رخون ذلك بداية طيبة فى علم التاريخ وتسلسله الزمنى فى جنوب الجزيرة العربية ، غير أنه لم يتم العثور على نصوص فى هذه السنة ، وانما النص الذى عثرعليه يرجع تاريخه الى ما يعادل سنة ٢٧٦ م ، من أيام الملك ياسر يهنحم ملك سبأ وذى ريدان ، وابنه الملك شمر يهر عشر الذى اتسم لدى المؤرخين بسمة الملك الثالث .

أما عن الشهور والسنوات المستخدمة ، فلا يزال حل رموزهما فى حاجة الى مزيد من الدراسات المتعمقة ، ورغم ذلك فأن معظم الكتابات التى ترجع الى هذه الفترة تذكر لفظ " يورخ " أو " ورخس " ثم يلحقها اسم الشهر الذى أرخ به النص ثم عدد السنين بالنسبة للتقويم ، وقد وردت كتابات أخرى بالنسبة لأستخدام السنين على النحو التالى : " درخهو ذى حجان ذل أربى وست ما تم خزيتم " ، ويعنى ذلك : " تاريخه أو شهره ذى الحجة لأربع وستمائة سنة "، وهو ما يعادل سنة ٤٩٥ م .

وقد أرخ عرب مكة بما يحدث لديهم من الأحداث الكبيرة ، فأن أرخوا بحادث ومضى عهد عليه ووقع حادث آخر أكثر أهمية أرخوا به ، فأرخوا بعام رئاسة عمرو بن ربيعة – عمرو بن لحى – وهو الذى بدل دين ابراهيم ، كما أرخ عرب مكة بموت " قصى " مكانته لديهم ، حتى كان عام الفيل فأرخوا به . وتجدر الأشارة الى أن – اليمن ومكة كانا مركز تجمع المجتمع العربى الشمالى ، وقد استخدم ابرهة الجيش النصرانى الأسلوب الذى كان متبعا فى اليمن فى كتابة وثائقه .

وكان عرب العراق وبادية الشام متأثرين بالحضارات المجاورة فأرخت حران باليونانية ، أما أهل الحيرة فقد ارتبط تقويمهم بتقويم الفرس ، واستخدام عرب الشام التقويم الذى يؤرخ بحكم ( الأسكندر ) الذى بدأ فى شهر ابريل سنة ٣١١ ق . م ، كما اتبع بعض عرب الشمال تقويم بصرى وخاصة فيما يتعلق بالأحداث الجسام .

## ( ب ) المعـــانى العـــامة :

وهكذا استأثر التاريخ – لفظا وهدفا– باهتمام العرب منذ وجودهم ، وطبقا لرؤى فريق من المؤرخين العرب المعاصرين فأن تحديد المعنى العام التى كانت تعنيه لفظة ( تاريخ ) عند العرب والمسلمين تشمل خمسة معانى على النحو الآتى :

**اولا :** سير الزمن والأحداث ، أى التطور التاريخى .

**ثانيا :** تاريخ الرجال .

**ثالثا :** عملية التأريخ أى التدوين التاريخى بما تشمله لفظة عملية Process من ديناميكية فى وصف التطور وتحليله .

**رابعا :** علم التاريخ والمعرفة وما تحتويه كتب التاريخ وأهميتها فى حقول المعرفة المختلفة ، فالتاريخ المقبول ليس الحقائق الجامدة أو المطلقة وانما هو – أيضا – الأسلوب والصياغة ، وطريقة العرض وحسن الاختيار فى الربط والمواءمة بين الأسباب والمسببات وتحديد النتائج المستخلصة .

## (جـ) تحديد زمـــن الحدث التـــاريخى باليـــوم والشـــهر والســـنة

تجدر الاشارة أن الأحداث السابقة على الاسلام لم يقم بتسـجيلها مـؤرخ واحـــد ، ولم تكن هناك مدونات تعتبر مصدرا رئيسيا ، وان كان هناك بعض قطع الجلد والرق ولحاء الخشب التى سجلت عليه أبيات الشعر ، وبعض المراسلات أو الشئون البسيطة ، اذ أن العرب اعتمدوا على الشعر الموزون ، والكلام المقفى فى

تسجيل ما تراه هاما .

والواقع أن التدوين بالشكل المتعارف عليه والذى يؤدى الى صور المعرفة المتعددة لم يكن معروفا قبل الاسلام ، باستثناء حالات قليلة – كما سبقت الاشارة – لا تنهض لكى تشكل أساسا يمكن الانطلاق منه الى عطاء يؤدى الى معارف واسعة ، وعلى سبيل المثال فان النقوش الأثرية باللغة العربية الفصحى كانت نادرة للغاية وتأسيسا على ذلك فأن التدوين التاريخى لم يكن متوافرا فى العصر الجاهلى [١٧] ، ومع ذلك فقد أدت الاكتشافات الأثرية الى أن الحميرين كانوا يدونون أخبارهم والكثير من حوادثهم على الأحجار بخطهم الخاص بهم ، وعلى أطراف الجزيرة العربية عرف أهالى الحيرة الكتابة بشكل محدود ، وفى الحجاز وجد عدد قليل من الناس يعرفون الكتابة ، وكانت قلة من الشعراء تعرف الكتابة وكان بعضهم يكتب قصائده وينسقها بنفسه .

ويرتبط التدوين لدى العرب قبل الاسلام بالحضارات الكائنة فى الجزيرة العربية وقتئذ حيث شهد العصر الجاهلى فترة طويلة الأمد من التطورات الحضارية القديمة سواء فى اليمن أو البتراء وتدمر والحيرة ، ومهما اختلف هدف هذه الحضارات فقد كان لها سجلات مدونة بلغة أصحابها ، وترتيبا على ذلك كانت الكتابة على سجلات أمرا طبيعيا ، وبالرغم من عدم شيوع استعمال الكتابة فى هذه الحضارات القديمة فانها لم تكن مجهولة تماما ، ولم تكن كتابة العرب تخلو من بعض المزايا الواضحة ، ومع ذلك فلم تصل الى المرحلة العالمية والفلسفية مثل اليونان وهوما يقتضى وقفة لتفسير وتعليل مفهوم التدوين وغاياته فى الحضارات القديمة .

### ( د) الحضـــــارات القديـــمة

من الثابت أن الحضارة اليونانية ذاتها كانت ثمرة للحضارتين المصرية وبلاد النهرين ( السومرية والبابلية ) وقد لاقت الحضارتان اهتماما فى التدوين التاريخى ،

وهناتبرز الصلة بينهما وبين الحضارة العربية ، فقد احتوت الجزيرة العربية على مدن عريقة مثل مكة والمدينة والطائف فضلا على جنوب اليمن ، وقد سبقت الاشارة الى ما استأثر به الشعر من اهتمام العرب قبل الاسلام ، وكان من أقدم الحضارات القديمة ، حضارة مصر وسومر وبابل والصين ، وقد اختلفا كتابات وادى النيل على الرافدين ، فالأول على جدران المعابد وعلى الصخور باللغة الهيروغليفية ، أما الثانية فهى على ألواح الصلصال المحروق بالخط المسمارى ، وفى اليونان يجمع المؤرخون على أن أول من كتب تاريخا عاما هو " هيرودوتسن " اليونانى ( ٤٨٥ – ٤٢٥ ق .م ) ويطلقون عليه " أبو التاريخ " . (١٨)

وكان المصريون أول من سجل الأحداث على جدران المعابد والقبور ، وحينما عكست الثقافة الأغريقية الهيلينية آثارها على الثقافة المصرية فقد كان التدوين التاريخى هو المحصلة لهذا التأثير ، ففى عصر بطليموس الثانى – أحد ملوك بطالمة مصر وورثة الاسكندر فى مكمهار – قام مانيتو .Manitho الكاهن المصرى بعبء جمع وتسجيل حوليات من تاريخ مصر باللغة الأغريقية ، وقد اعتمد اليهود والأقباط على هذه الكتابات فيما بعد لاثبات الأحداث الواردة بالكتاب المقدس ، وقد استمر تدوين تاريخ مصر بعد مانيتو ، فضلا عن أنه لم يكن اسبق مصرى لهذا العمل حيث ظهر الكاتب الملكى ( ردموس) والكاتب الملكى ( أحمس ) (١٩)

أما السومريون فلم يصلوا الى كتابة تاريخ منسق ، مترابط أو مفهوم ، ولم يعرفوا أنواع الكتابة التى كانت سائدة عند اليونانيين ، ولعل أقرب الوثائق ما يعرف بالكتابات النذرية ، المنقوشة على التماثيل والمسلات والمخروطات الطينية وألواح الطين ، وقد عاش المؤرخون السومريون فى مدينة " لجش " جنوب بلاد سومر ، والتى اشتهرت بدورها السياسى والعسكرى البارز طوال القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، ومن المعروف أن سومر هى احدى الدول التى قامت فى بلاد النهرين مثل بابل وآشور وكانت

لكل منهم حضارة ، وهذه الحضارات هى التى أقامت حضارة بلاد النهرين ( العراق حاليا) كحضارة شاملة جامعة ، وكان أول من كتب فى تاريخ بلاد النهرين الكاهن البابلى بيروس حيث شرح تاريخ بلاده منذ الخليفة والطوفان الى فتح الاسكندر سنة ٣٣١ ق . م .

وما حدث فى بلاد النهرين حدث فى الصين ، وأن كان اهتمام الصينيين كان أكثر بأخبار أسلافهم بسبب احترامهم لهم وتعلقهم بماضيهم وشملت مدوناتهم التاريخية شتى العصور ومختلف جوانب الحياة والملخصات الحولية والتراجم والسير ، ومن أشهر المؤرخين الصينيين سيزاماتيان الذى كتب وثائق تاريخية تتعلق بالحوليات الصينية منذ سنة ٢٣٣٢ ق . م ، وهوانج تى هو الذى ينسب اليه صنع السفينة واختراع البوصلة ، ثم أكثر المؤرخين الصينيين شهرة وهو كونفوشيوس الذى يلقب بحكيم الصين الأكبر .

ورغم مرور الصين القديمة بفترة اضمحلال ثقافية نتيجة لخوف جنشى وانتى Ghen- Shi-Wanti. على حكمه ، ومن ثم سيطرته على الكتب التى حفظها الساسيون والعلماء ، فقام باحراقها – باستثناء كتب الزراعة والطب ، وحرم بذلك التاريخ من تدوين فترة هامة عن تاريخ الصين .

أما الهند القديمة فليس لها تاريخ قومى مكتوب نظرا لتعدد الأجناس – الاعراق races. بين شعوبها ، فضلا عن اختلاف اللغات وتنافر العادات والأعراف والتقاليد ، وترتب على ذلك عدم وجود وحدة سياسية تربط تاريخ الهند القديم ، غير أن الأشعار التى كان يلقيها الكهنة فى الطقوس الهندية الدينية والمستمدة من الأساطير – قد سجل ذلك بعض جوانب التاريخ الدينى وجسد نظام الطبقات وجعل الكهنة ينفردون بطقوس الصلاة .

## من مؤرخي الاغريق الى التنافس الروماني :

هناك - أيضا - أهمية الحضارة اليونانية القديمة وارتباطها بالحضارة الأسلامية في مرحلة تاريخية لاحقة حيث رؤية أحد المستشرقين أن أوروبا لم يظهر فيها قبل القرن الخامس عشر الميلادى عالم لم يقتصر على استنساخ كتب العرب ، وما يراه آخرون من أن الحضارة العربية الأسلامية المبتكرة لم تأخذ عن الحضارة الأغريقية أو الحضارة الهندية الا بقدر ما أخذ أرسطوطاليس أو فيثاغورث من الحضارتين البابلية والمصرية القديمة ، غير أن العرب قد طوروا بتجاربهم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه من مادة علمية عن الاغريق و أعادوا تشكيله ، ومن هنا تنبع أهمية توضيح التدوين التاريخى عند اليونان ، متى بدأ ؟ وما مشكلاته ؟ وما هو تأثير التدوين على علم التاريخ الاغريقى؟ ومن هو أول من كتب تاريخ ميلاد اليونان ؟ والى أى مدى كانت علاقات التأثير والتأثر - من خلال الناحية المنهجية - لدى العرب المسلمين فيما بعد (٢٠) .

والواقع أن التدوين التاريخى لدى اليونان بدأ متأخراً معتمداً على الأساطير - أساطير هوميروس عن أحداث أكثر من قارة - كذلك واجه التدوين عند الأغريق مشكلة اختراع الكتابة ، حيث لم يمارس فن الكتابة فى بلاد اليونان حتى القرن السادس قبل الميلاد باستثناء حالات قليلة ، مما عرض الكتابات الأولى للفقد أو التلف نظراً لتسجيلها على الألواح الشمعية والبرديات ، ولم يتمكن المؤرخون من تتبع تاريخى مسلسل لبلاد اليونان قبل هيرودوت الذى كتب نثراً أدبياً رائعاً ومحكماً عن تاريخ بلاد اليونان وعلاقاتها بآسيا الصغرى وتاريخ الأقوام المتحضرين والمتخلفين وعاداتهم وتقاليدهم ، وشرح تفصيلاً للحروب البلوبينزية ( ٤٩٠ - ٤٧٩ ق . م ) .

ومهما قيل بشأن تقويم كتابات هيرودوت من أنه يكتب بهدف تسلية القراء أو عدم اهتمامه كثيراً بالتسلسل الزمنى فى الأحداث فمن الثابت أن هيرودوت يبرز كمثل

يحتذى به فى العهود التالية له خاصة وأن تاريخ الشرق القديم يتسم بالتعقيد فى معالجة أحداثه ، لقد كان هيرودوت فليسوفاً ورحالة ، وتعتبر كتابته قطعة أدبية تاريخية حية فريدة فى طابعها وذلك على الرغم من غلبة الأسطورة على معالجة الأحداث ، فالمؤرخ يتجول مع هيرودوت ليرى كيف كانت انجازات اليونان وإنجازات الشعوب الآسيوية ويرسم تصوراته لها وتحليله لبعض الظواهر السياسية والاجتماعية والدينية ، كما يعتبر الكتاب أول مصنف فى الجغرافيا البشرية .

وقد حفلت اليونان فى هذه الفترة بالعديد من المؤرخين ومنهم ثوكيديدس الذى تفرغ لكتابة مؤلفه العسكرى القيم عن الحرب البليونيزية ( ٤٣١ - ٤٠٤ ق . م ) بين أثينا واسبرطه فى منهج عسكرى سياسى ، كما يعتبر هيلانيكوس ( ٤٧٩ - ٣٩٥ ق . م ) نموذجاً رائعاً لدراسة تاريخ أيوليا ، وأركاديا ، وفارس ، ومن المؤسف أن معظم أعماله قد فقدت ، وقد اهتم المؤرخون بالأعمال القليلة الباقية له ، وهناك - أيضاً - بروكليس الزعيم الأثينى ( ٤٩٥ - ٤٢٩ ق . م ) وهو ذو ثقافة عالية ، وقد وصل بسعة أفقه إلى أن أثينا هى زعيمة الحضارة الأغريقية أو « مدرسة بلاد الأغريق » كما اشتهر ايزوكراتس الأثينى ( ٤٣٦ - ٣٣٨ ق . م ) بأنه أشهر خطيب أثينى ، وهو تلميذ للمفكر السياسى الذائع الصيت أرسطو ، بالإضافة إلى أفورس الكيمى ( ٤٠٥ - ٣٣٠ ق. م ) وثيوبمبوس الجنوس وهو من أبرز المؤرخين فى ذلك الوقت ، أما اكسينو فون ( ٤٣٠ - ٣٣٥ ق . م ) فهو الآخر مؤرخ إغريقى مشهور ، وكان تلميذاً لسقراط وفى كتابه ( أنا بسيس ) شرح اكسينوفون المعركة التى اضطر فيها جيش الأغريق إلى الانسحاب وانتخابه قائداً للانسحاب ، ويعد هذا الكتاب بمثابة إلهام تاريخى لمصنف هيرودوت فى مؤلفه « الموتى » وهو أول مذكرات حربية فى التاريخ ، وهناك - أيضاً - كتابه «هيلنيكا» ويتكون من قسمين يتناولان تاريخ الأغريق حتى ( ٤١١ ق . م ) وموقعة سانتايا الثانية ( ٣٦٢ ق . م ) (٢١) .

واستأثرت شهرة الاسكندر الأكبر وتعلق اليونانيين بأثينا اهتمام دارسى التاريخ ، فشهد القرن الثالث قبل الميلاد نوعاً جديداً من دراسة المدن والأقاليم وتراجم الزعماء ، وظهرت سلسلة من الأساطير حول تاريخ الاسكندر ، ويعتبر « كراتيروس الأصفر » من مؤرخى هذا القرن حيث نشر مجموعة من القوانين الأثينية (٢٢) .

أما التنافس الرومانى الأغريقى والذى انعكس على حروب الرومان للسيطرة على الأغريق ، فقد انبثق عنه ظهور مؤرخ إغريقى آخر أسهم فى عملية التدوين التاريخى إسهاماً إيجابية وهو بوليبوس ( ٢٠٢ - ١٢٠ ق . م ) والذى يعد من أعظم مؤرخى القرن الثانى قبل الميلاد باعتباره رمز لعصر الجمهورية الرومانية ، ومن المثير للدهشة أن بوليبيوس اليونانى هو أول مؤرخ يوضح عظمة روما وأسبرطة ، وبين روما والمقدونيين وانتهت هذه الحروب بانتصار روما ، لدرجة أنه أصبح رومانياً أكثر من الرومان ، والواقع أنه لولا مشاركة الكتاب الأغريق فى التدوين لبعض الرومان فإن تاريخ الرومان كان سيأتى هزيلاً وبدائياً ، وسوف يعالج المؤرخون الرومان فى الفترة التالية موضوعاتهم فى إطار المنهج اليونانى ، وقد زاد ذلك أهمية بوليبوس بين المؤرخين الرومان أنفسهم حيث ذاع صيته بكتابه « التاريخ العام » Historia فى وصف الغزو الرومانى لجزء كبير من العالم ، وفضلا عن ذلك فقد شهد صعود نجم روما وسيطرتها على أجزاء كبيرة من حوض البحر المتوسط واستقطابها لحضارات سكانه ، وتأسيساً على ذلك فإن بوليبيوس قد عاصر - أيضاً - تدهور اليونان وقد اعتمد فى منهجه على الجمع بين صفتى المؤرخ المحايد ومؤرخ الدولة من حيث تدوينه للحقائق الخالصة مهما كان نوعها ومحتواها دون مبالغة ، وإن الحقائق المؤكدة وحدها هى التى تعين فى تنظيم إدارة الحكم وتوجيه الأحوال العامة ، وفضلاً عن أنه يعد من رواد كتابة التاريخ على نحو فلسفى .

وفيما يتعلق بعلم السياسة باعتباره علم الدولة والحكومة والنظم السياسة ، وبقول

آخر باعتباره علم أنواع الحكم بمبادئه ونظرياته ومذاهبه ، فقد تجلت العبقرية السياسية لكتاب بوليبيوس فى وصفه للمثل العليا السياسية للرومان ونظام حكمهم الذى يجمع بين النظام الملكى ، والنظام الارستقراطى ، والنظام الديمقراطى ، وأن تفوق روما السياسى قد انعكس على اختصارهم دوره فى هذا التطور السياسى (٢٣)

وما دمنا بصدد عرض وتحليل كتابات المؤرخين فى عصر الجمهورية الامبراطورية الرومانية ، فإن ذلك يقتضى تحليل كتابات « تاكنيوس ٥٥ - ١٢٠ م » باعتباره مؤرخ علمى يتسم أسلوبه بالبلاغة والقدرة على تصوير الشخصيات من خلال كتابيه « الحوليات » و « التواريخ » حيث وصف بدقة للأزمة السياسية سنة ٦٩ م ، وكشف النقاب عن الخيانات والمؤامرات والصراع على السلطة بين الحكام ، فجاء منهجه أقرب إلى النزعة العلمية والأخلاقية ودقة المعلومات وخاصة حين شرح لعوامل انحلال روما عسكرياً وسياسياً واجتماعياً (٢٤) .

## هوامش الفصل الثانى

١ – وهو محمد بن عبد الرحمن بن شمس الدين السخاوى وقد عاش فى الفترة ٨٣١ – ٩٠٣ هـ / ١٤٢٥ – ١٤٩٧ م .

٢– دكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، مرجع سابق ، ص ١٧ .

٣– دكتورة ليلى الصباغ ، فى منهجية التاريخ ، دمشق ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م .

٤– دكتور حسن محمد سليمان ، ص ٢٣ نقلاً عن : فرانز روزنتال ، ترجمة الدكتور صالح أحمد القلى ، علم التاريخ عند المسلمين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م ، ص ١٦ – ١٨ ، ص ٢٠ – ٢٤ .

٥– طه باقر ، عبد العزيز حميد : طرق البحث العلمى فى الآثار والتاريخ ، بغداد ، الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م ، ص ٥ – ٨ .

٦– فرانز روزنتال ، ص ٢٠ – ٢١ .

٧– السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ٧٩ – ٨٠ .

٨– دكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، ص ١٨ .

٩– كولنجوود ، ر. ج ؛ ترجمة محمد بكير خليل و محمد عبد الوهاب خلاف : فكرة التاريخ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣١ – ٣٣ .

١٠– الصولى ، أدب الكاتب ، تحقيق محمد بهجة الأثرى ، القاهرة ، بدون تاريخ إصدار ، ص ١٧٤ ، ص ١٧٨ – ١٧٩ .

١١– الجوهرى ، مختار الصحاح ، بولاق ، القاهرة ١٢٨٢ هـ ، الجزء الأول ، ص ١٩٩ – ٢٠١ ، وهو إسماعيل بن حماد الجوهرى وقد توفى فى نهاية القرن الرابع الهجرى – الحادى عشر الميلادى .

١٢- وهو موهوب بن أحمد الجواليقى الذى توفى سنة ٣٥٩ هـ / ١١٤٤ م ، راجع فرانز روزنتال ، مرجع سابق ص ٣٨٣ ، نقلاً عن بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى، الجزء الأول ، ص ٣٩ ، والمعروف أن هذا الكتاب له طبعة ألمانيا ( ليبزج ١٨٦٧ ) أما الطبعة الثانية فهى باللغة الإنجليزية باسم History of Islamic People ، وراجع أيضاً : ابن منظور ، لسان العرب الجزء الثالث ، بولاق ص ٤٨١ .

١٣- دكتور أحمد محمد سليمان ، المدخل إلى دراسة علم التاريخ ، مرجع سابق ص ١٣٠ .

١٤- ويعتبر هيرودوت أول من كتب نثراً أدبياً محكم الأسلوب فى التاريخ ، عالج فيه تاريخ بلاد اليونان فى تسلسل دقيق ، وقسمه إلى تسعة كتب عنون كلا منها باسم إحدى « إلهات » الشعر ، وأطلق عليها جميعاً لفظة Legos وتعنى قصة أوتاريخاً، وهى متفقة مع لفظة Logographas للدلالة على كتاب الحوليات الأول ؛ وتجدر الإشارة إلى أن هيرودوت كان قد ولد فى إحدى مدن « كاريا » التى تقع فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى والتى كانت متأثرة بثقافة المدن المجاورة لها ، وكان سكان كاريا يتكمون اليونانية بلهجة « أيونية » ؛ كما كانت كاريا مستعمرة للأمبراطورية الفارسية حينما كان هيرودوت طفلاً ؛ حيث اضطرت أسرته إلى مغادرتها نتيجة للاضطرابات السياسية وتنقل هيرودوت بين المدن اليونانية من ساموس إلى أثينا وتوفى عشية الحرب اليلوبينزية ٤٣١ - ٤٠٤ ق . م ، راجع فى تفصيل ذلك ، المرجع السابق نقلاً عن سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الثانى ، ترجمة إبراهيم مدكور وآخرين ، القاهرة ، بدون تاريخ إصدار ، ص ١٥٣ - ١٥٦ وراجع أيضاً : الموسوعة العربية الميسرة ، ص ٤٧٩ - ٤٨١ .

١٥- راجع : فتحى رضوان ، « التاريخ فى مناهج الدراسة فى مصر ، ص ٧٣ حيث

استعان المؤلف بكتاب هنرى جونسون ونشر بالقاهرة ١٩٦٥ ، وهو ما أوضحه دكتور حسين محمد سليمان ، م ى ذ .

١٦- المرجع نفسه ص ٧٩ ، وراجع أيضاً : صموئيل كريمر ، من ألواح سومر ، ترجمة طه باقر ، مراجعة أحمد فخرى ، منشورات مؤسسة فرانكلين القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٩٠ - ٩٤ .

١٧- المرجع نفسه ص ٩١ .

١٨- دكتور حسين محمد سليمان ، م . س . ذ . ، ص ٨٢ - ٨٣ نقلاً عن : ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، الجزء الثانى ، المجلد الأول ص ٤٢٧ .

١٩- راجع : سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الثانى ، م س ذ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

٢٠- المرجع نفسه ص ١٥٧ .

٢١- دكتور أحمد محمد سليمان ، م س ذ ، نقلاً عن الموسوعة العربية الميسرة ، ص ١٦٣٣

٢٢- على إبراهيم ، تأريخ التاريخ ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٣٠ - ٣٣ .

٢٣- المرجع نفسه .

٢٤- راجع فى تفصيل ذلك - دكتورة ليلى الصباغ ، فى منهجية التاريخ ، دمشق ١٩٨٠ ، وراجع أيضاً دكتور سيد الناصرى ، فن كتابة التاريخ ، القاهرة ١٩٨٢ ، وراجع أيضاً هنرى فرانكفورت ، فجر الحضارة فى الشرق الأدنى ، ترجمة ميخائيل خور ، بيروت ، نشر مؤسسة فرانكلين ، بدون تاريخ إصدار .